تعريف بالكتاب

جون ستيوارت مل فيلسوف انجليزى من اشهر فلاسفة القرن التاسع عشر ، كتب فى المنطق وعلم الاقتصاد السياسى ودساتير الحكم، وقيل عن كتابه « مقال عن الحرية » انه انجيل الديمقراطية ، وقد تجدد البحث فيه بعد قيام النظم الدكتاتورية فى بلاد القارة الأوروبية ،واختلاف الآراء بين ما تتولاه الحكومة من الاعمال وما يتولاه الأفراد .

ويدل رأى الفيلسوف عن مدى الحرية التى تحق للفرد على محور آرائه جميعا فى هذا الكتاب ، فهو يقرر أن النوع الانسانى كله لو اتفق على رأى من الآراء العامة وخالفه فى ذلك فرد واحد لم يكن من حق النوع الانسانى كله أن يحول بين ذلك الفرد وبين اعلان ما يراه .

فليس للجماعات الانسانية حق مشروع فى الحد من حرية الفرد الا أن تمنعه من الاضرار بالآخرين وكل ما كان من أمر الفرد يخصه فى ذات نفسه فلا رقابة عليه ولا حدود لحقه المطلق فى حرية الضمير وحرية الفكر وحرية الشعور غير المساس بحقوق غيره فى جميع هذه الحريات، وانما الحرية التى يحق أن تسمى بهذا الاسم هى الحرية التى تسمح للانسان أن يعرف صلاحه على حسب رأيه فلا يضطره الحاكم الى قبول مصلحة له يفرضها عليه .

ويعتقد الفيلسوف ان عهد الخوف من اضطهاد الحكومات يزول شيئا فشيئا ويخلفه الخوف من اضطهاد الجماعات ، فلابد اذن من الحيطة الفعالة لصيانة حقوق القلة من أصحاب الآراء فى وجه الكثرة المخالفين لها بالتفكير أو الذوق او بالشعور .

ومهما يكن من موقف الفرد بين الجماعة فالقهر الذى تفرضه عليه

تلك الجماعة بحرمه فرصة الاهتداء الى الصواب ان كان على خطأ ويسجل خطأ المخالفين له ان كانوا هم المخطئين . وقد مضى الزمن الذى يحرق فيه الهراطقة ولكن الحجر على الأفكار المخالفة يوشك ان يعيده فى صورة اخرى ، وهى حرمان المخالف من حق العيش بالحيلولة بينه وبين كسب رزقه ومعاملة غيره . ولا فرق بين هذه العقوبة وعقوبة الاحراق فى النهاية .

وقد تبين من الماضى ان صواب الفرد فى مخالفة الجماعة ليس بالأمر النادر ، وان القديسين والشهداء انما هم الهراطقة المنبوذون فى عرف الأجيال السابقة ، ولا امان من تكرار ذلك فى العصر الحديث الا ان تتراك الجماعة للزمن كل ما يوافقها او يخالفها من الآراء ، وهو الكفيل باقرار ما يستحق الاستقرار .

ولو امكنت الثقة من فكرة عامة انها صواب كل الصواب وان ماعداها ضلال كل الضلال لأصبحت هذه الفكرة عقيدة ميتة اذا جاز تسليمها بغير مناقشة وبغير اعتراض ، وأصبحت فى حكم المنقولات الآلية التى يتلقاها السامع بها وهو مغمض العينين .

ولا ينبغى ان ننظر الى الأفكار كأنها لا تكون الا صوابا من جهة وخطأ من الجهة الأخرى . فان الأغلب الأعم أن يكون بعض الصواب وبعض الخطأ شركة مقسومة بين جانبين او جوانب عدة ، ولا غنى عن التوسع فى مناقشتها على كل وجه من الوجوه للتفرقة بين مواضع القبول منها ومواضع الانكار .

ويحق للفرد أن يملك حريته فى تجربة رأيه عملا كما يحق له ان يعلنه ويقنع به غيره ، فليس من اللازم ان يكون العمل مبرأ من النقص والخلل لكى يجوز السماح به فى الجماعة ، اذ ليس من المستطاع ضمان العصمة من النقص والخلل فى جلائل الأعمال أو صغائرها ولا فى اعمال العارفين واعمال الجهلاء ، ولكن التجارب الحرة هى التى تنتهى بتمييز الاتقان وتفضيله على الخلل وترجيح القدرة وتفضيلها على العجز والقصور .

وليس مما يناقض الحرية ان نعلم الصغار كيف ينتفعون بالتجارب الانسانية الماضية وكيف يجتنبون ما ظهر على توالى الأزمنة انه حقيق بالاجتناب ، ولكن المناقض للحرية ان يحظر على الانسان الراشد أن يجرب مشيئته فيما تعلمه ووعاه من ايام صباه ، فان هذه المشيئة هى سبيل التقدم والتطور بين الأجيال المتعاقبة وهى الباب المفتوح للتعديل والتجديد الى غير انتهاء ، وعلينا أن تذكر دائما ان الراى العام انما هو مجموع آراء المتوسطين ومن هم دون الوسط فى الجماعات الانسانية ، فلا سبيل الى التقدم والارتفاع فوق الوسط المشترك بين الالوف والملايين بغير الاصغاء الى الآحاد الممتازين ، وهم أصحاب الآراء التى تفاجىء الناس اول الأمر بنقيض ما ألفوه .

وللجماعة أن تساعد الفرد على عمله ومصلحته ولا تطالبه فى مقابلة ذلك بغير المحافظة على حقوق غيره .

ولا ينكر الفيلسوف أن اضرار الفرد بنفسه قد يصيب غيره بالأذى على غير قصد منه ، ولكن الجماعة ينبغى أن توازن بين هذه الأضرار التى لا سبيل الى اتقائها وبين الأضرار الجسام التى تنجم من حبس الحرية وتعطيل المشيئة والاكراه على الراى بغير اقناع وبغير هداية ، ففى وسع الجماعة ان تتقى هذه الأضرار الجسام ولا مناص من اتقائها ، لأن عواقبها عند الموازنة بينها وبين عواقب الحرية الفردية أسوأ جدا من تأثير عمل الفرد الذى يسرى الى غيره ببعض الضرر على غير قصد من المصيب أو من المصاب .

ومن الواجب أن يكون عمل الحكومات مقصورا على الشئون التى لا تعطل كفاءة الأفراد المستقلين، لأننا فى هذه المسألة أمام ثلاثة احتمالات: أولها أن يكون الفرد المستقل أصلح من الحكومة للقيام بذلك العمل ، وثانيها أن يكون الفرد أقل صلاحا له من الحكومة ولكنه يفقد القدرة على تدبير العمل بالكف عن مزاولته والاستفادة من تجاربه فيه ، والاحتمال

الثالث أن تنجح الحكومة فى ولاية جميع الأعمال الفردية فيجتمع بين يديها من السلطان مايسول لها استخدام هذا السلطان فى التحكم المطلق والعجز على كل مشيئة تستقل عنها برأى أو تجربة أو محاولة تحق للأحرار المختارين ، وكلما صلح الحاكمون لولاية أعمال الأفراد والتخلية بينهم وبين واجباتهم وتبعاتهم كان ذلك ادعى الى الضرر والتشاؤم من العاقبة ، لأنه يصيب المحكومين بشلل الإرادة ويغرى الحاكمين باحتكار الكفاءة الذى يؤول بهم لا محالة الى التشبث بالرأى والاصرار على السنن التقليدية الى أن تزول تلك الكفاءة ولا تعوضها كفاءة مثلها من جانب المحكومين .

ويسأل المعترضون على مذهب جون ستيوارت مل فى الحرية : ألا تطالب الحكومات بحماية رعاياها من أخطار الأفكار الضارة ؟ ألا يوجد من أولئك الرعايا من تهددهم دعاية هذه الأفكار الضارة بما هو شر من أعمال العنف والجريمة المحظورة ؟ .

ويقول الفيلسوف : بلى ! يجب على الحكومات أن تحمى رعاياها من جميع الأخطار العامة ، ويوجد بين الرعايا من تجوز عليهم الأباطيل ولا تتيسر لهم النجاة منها بغير هداية ، ولكن العلاج المفضل على كل علاج من هذه الأحوال هو السماح بالرد على كل دعاية بما يقابلها ويشرح وجهة النظر الأخرى . فان السماح للدعايات جميعا على السواء يكشف الحقائق ويدحض الأكاذيب ويغنى الدعاة عن الوسائل الخفية ومؤامرات العنف والاجرام التى يلجأون اليها كلما حيل بينهم وبين اعلان الرأى بالوسائل المشروعة .

فان لم يكن ذلك مجديا فى حماية الأمة من الأخطار المحققة فلا حيلة اذن فى علاج تلك الأخطار بالرقابة عليها ، ولكن من هو صاحب الحق الذى يقرر وقوع الخطر أو يجزم باقتراب وقوعه فى المستقبل ؟ .

أيا كان الخطر المحذور فمن الواجب أن يحتاط لتقريره فلا يترك الجزم به لمن يتولاه بغير مراجعة ولا استدراك كلما ثبت أن الخطر زائل

وان الرقابة فعلت فعلها ولم تجاوز حدها مخافة ان ينقلب الأمر فتصبح هى الخطر المحذور .

ان اللورد رسل الفيلسوف المعاصر يعرف صاحب كتاب الحرية كما نرى من حواره المنشور فى هذه المجموعة ، وخلاصة تقديره له انه مفكر عظيم كان له اثر بعيد المدى فى عصره وبعد عصره ، ولكنه عرضة للمناقشة الكثيرة فى بعض احكامه المنطقية ومقرراته الفلسفية ، اما الكرامة التى ترتفع بالرجل فوق منال الجدل ولجاجة الخصومة فتلك هى كرامة الخلق الرفيع والغيرة الصادقة والطيبة الخالصة ، وهى الشمائل التى تحدث بها اللورد رسل فى كتابه « صور من الذاكرة » ولم يتحدث بمثلها عن أحد من أصحاب الصور فى ذلك الكتاب ، وتلك شهادة ترجح وزن الرجل فى ميزان الأفكار وليس قصاراها أنها مرجحة له فى ميزان الأخلاق .

عباس محمود العقاد